منارات
manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5949) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (23) تموز 2025

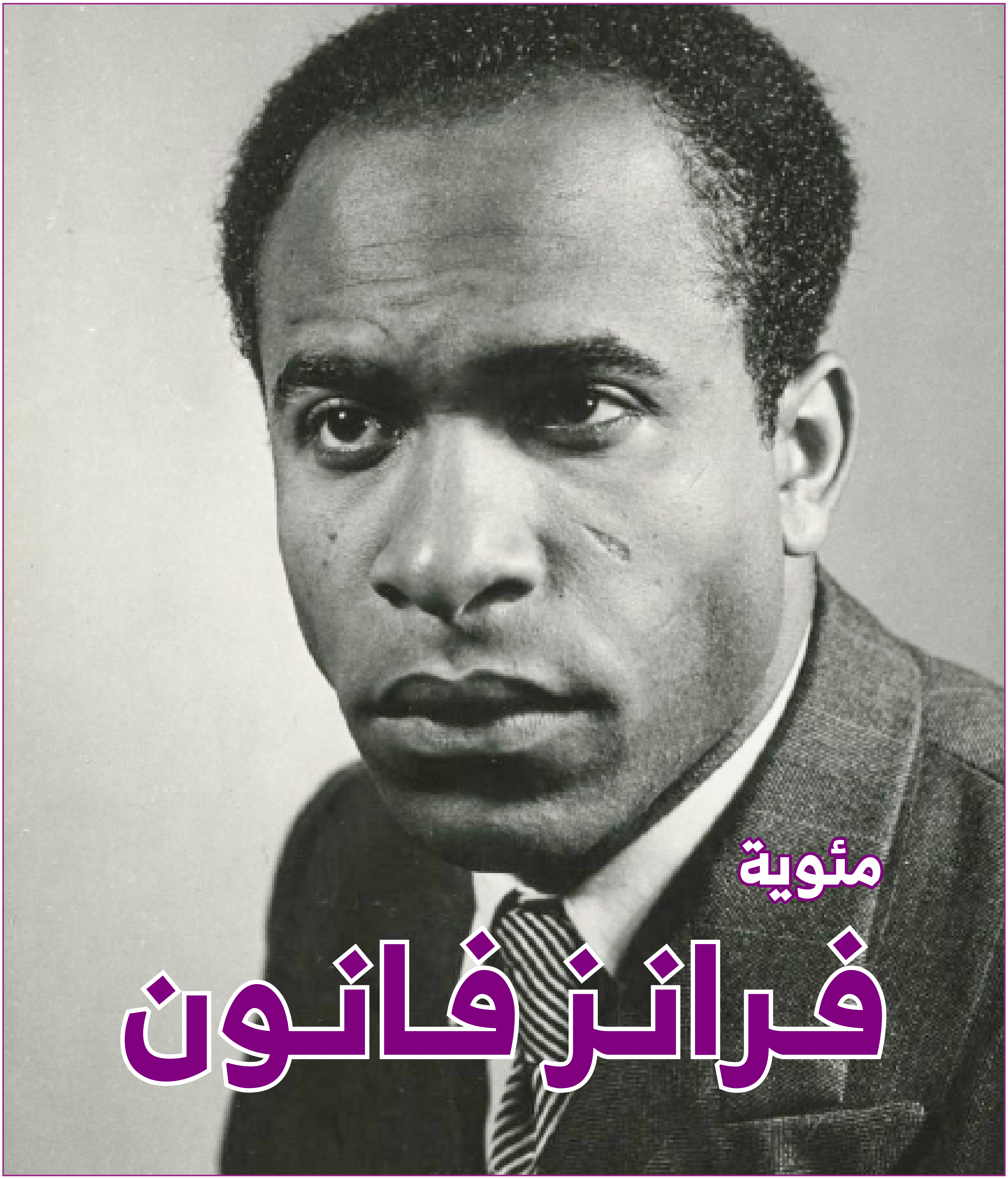

مئوية

فرانز فانون

ما بقي من أفكار فانون عن الاستعمار

عبدالسلام بنعبدالعالي

كتب إيمي سيزير في النص التكريمي الذي نُشر بعد وفاة فرانز فانون (١٩٦١) معتبرا أن الكتاب الأساس عن الاستعمار وعواقبه الإنسانية وآثار العنصرية، هو كتاب فانون "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء". "أما بالنسبة إلى التحرر من الاستعمار، وجوانبه وإشكالاته، فالكتاب الأساس، بالنسبة إلى سيزير هو أيضا كتاب فانون: "معذبو الأرض". فهل تنحصر قيمة فرانز فانون في الفترة الاستعمارية وما أعقبها مباشرة، أم لا يزال ممكنا اعتماده لتحليل علاقتنا بالغرب؟

كتب فانون في "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء": "إذا نازعني الأبيض في إنسانيتي، فسأثبت له أنني لست الزنجي الساذج الذي يتخيله دائما، وذلك بأن أفرض على حياته ثقل وجودي كإنسان. أكتشف نفسي يوما ما في هذا العالم، وأعترف لنفسي بحق واحد فقط: حق مطالبة الآخر بسلوك إنساني. وأنا علي واجب واحد: ألا أنكر حريتي من خلال خياراتي... لا يجب أن تكرس حياتي لجرد قيم الزنوج، لا يوجد عالمٌ أبيض، كما لا توجد أخلاق بيضاء، ولا حتى ذكاء أبيض، هناك فقط، على جانبي هذا العالم، بشرٌ يبحثون عن ذواتهم".

الغرب الأدهى

يظهر أن هذه العبارات جميعها لا تزال تنبض حياة، وأنها تصف واقع الحال، وأن ما كتبه فانون يتجاوز الفترة الاستعمارية، وأنه تحليل لعلاقة الغرب المعاصر بالآخر، سواء أكان هذا الآخر هو الشعوب التي عرفت الاستعمار، أو كان يتمثل في المهاجرين اليوم. إلا أن هناك من يرون أنه لا يكفينا لتحليل العولمة وحروب الهويات وأوضاع المهاجرين، وما يمزق العالم المعاصر، لا يكفينا أن نطبق ما كنا نقوله عن الغرب مستعمرا، وأن الغرب ربما صار أكثر "دهاء"، حتى إن اتخذ دهاؤه صورة أكثر نعومة، هذا إن لم نقل إنه أصبح يتنكر حتى لمبادئه، ويفقد صوابه.

وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن في إمكاننا أن نكيف بعض مقولات صاحب "معذبو الأرض" مع العلاقة الغربية المعاصرة بالآخر. فعندما يرى فانون أن الاستعمار لا يقتصر على الاحتلال العسكري، بل يشمل "تدمير هوية المستعمَر" من خلال فرض المستعمر لغته وقيمه، فإن ذلك قد يصح أيضا على علاقتنا الحالية بالغرب الذي أصبح يفرض هيمنته بكيفية "ناعمة" من طريق ترويجه لنموذجه في الحياة، وإسقاط مساره التاريخي على مسارات مناطق أخرى. فضلا عن ذلك، فإن بعض الاختصاصيين يرون أن تحليل فانون للاستعمار كـ"نظام اقتصادي" لا يبعد كثيرا عما يمكن أن نقوله اليوم عن سياسات صندوق النقد الدولي الذي يفرض شروطا تقيد سيادة الدول "الفقيرة"، وعما تقوم به الشركات المتعددة الجنسيات من استغلال لموارد أفريقيا وأميركا اللاتينية.

ثم إن ما كتبه فانون عن "البشرة السوداء" في العالم الأبيض، وكيف يُنظر إليها كـ"تهديد" أو بـ"دونية"، قد يجد مثيلا له في ما يقال اليوم عن "المهاجر" الذي لا يتمكن من "الاندماج" في الوسط الأوروبي، ذلك الاندماج الذي يُفهم عند بعض قادة الأحزاب اليمينية كانصهار وانسلاخ عن الهوية، وتخل عن اللغة الأم، بل حتى عن الاسم الشخصي.

كأن ما حصل هو تغيير الأسماء دون تغيير مسمياتها. فبينما كان "الآخر" في عصر فانون هو المستعمَر الذي يُخشى تمرده، فإن "الآخر" اليوم يتخذ أسماء أخرى ويُنظر إليه كـ"إرهابي" أو "همجي" أو خطر يهدد مكانة الغرب الاقتصادية. لكن، رغم تغير الأسماء، ألا تظل العلاقة هي هي، أليست دائما علاقة سيد بمسود؟ بل إن البعض يذهب أبعد من ذلك فيسقط ما كان يقوله فانون عن علاقة النخب المحلية بالمستعمر، بما لعبته من دور في "تكريس التبعية للغرب" حتى بعد الاستقلال السياسي، يُسقطها على بعض المثقفين اليوم الذين يبررون تبني النموذج الغربي كـ"طريق وحيدة للتقدم"، وتجاوز "التأخر التاريخي".

على الرغم من أوجه الشبه هذه جميعها، لا يمكننا إلا أن نقر بأن السياق يظل مختلفا. ففانون أساسا محلل للاستعمار المباشر، بينما تتخذ الهيمنة اليوم طريقا ملتوية، وتتم عبر الاقتصاد والتكنولوجيا والإعلام. ثم إن آخرية الآخر لم تعد بالوضوح ذاته. فالمهاجر المسلم في أوروبا قد يكون مواطنا ولد في أحد بلدانها، بل إنه قد يكون أحد أبنائها الذي لا يخالفها في لون البشرة ولا في العقيدة ولا حتى في النطق باللغة. لقد كان مفهوم الغرب عند فانون مرتبطا بسياقه التاريخي، مما يجعل تحليله محدودا وبعيدا شيئا ما عن تعقيدات العلاقات الدولية وطبيعة الهويات اليوم. فربما لم يعد من الممكن الحديث عن الغرب ككتلة موحدة. هذا فضلا عن ظهور حركات وأصوات مناهضة للرأسمالية والاستعمار بجميع أشكاله، وذلك داخل الغرب نفسه، فالغرب نفسه يسكنه آخره.

في هذا السياق لا بد من أن نشير هنا إلى النقد الجذري الذي كان المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي وجهه إلى فانون في مقال نشر في مجلة "الأزمنة الحديثة" التي كان جان بول سارتر رئيس تحريرها (أكتوبر/ تشرين الأول، ١٩٧٧). كتب الخطيبي: "كان فرانز فانون، قبيل وفاته، وجه هذا النداء: "أيها الرفاق، ولى عهد اللعبة الأوروبية، فلنبحث عن بديل". يتساءل الخطيبي: "هل ينبغي لنا أن نتخلى عن أوروبا ونبتعد عنها إلى الأبد؟ أليس هذا مجرد وهم، ما دامت أوروبا تسكن وجودنا في صميمه؟... إذا كان الغرب حالا فينا، لا كمجرد شيء خارج عنا مطلق الخروج، وكاختلاف ينبغي أن نقيسه باختلاف آخر، يلزم هو كذلك، أن ندركه في علاقته ومدى بعده عن الأطراف الأخرى للوجود، إذا لم يعد الغرب مجرد ذلك الوهم المتولد عن فزعنا، فيتبقى علينا أن نعيد النظر في كل شيء مهما كلفنا ذلك. لننطلق على هذا الانفصال الزائف الذي يرمي بالآخر في خارج مطلق، ‹اختلافا متوحشا›. إن هذا الاختلاف لابد وأن يضيع في متاهات الهويات الحمقاء. وهذا شأن النزعات الثقافية والتاريخية والقومية والشوفينية والعنصرية. هذا القول بالاختلاف المتوحش (المتوحش والساذج) كان شعار الحملة المسعورة التي سادت فترة مقاومة الاستعمار".

نلمس هنا اختلافا فلسفيا جذريا في فهم العلاقة بين الذات والآخر. فمنظور فانون لا يتعدى الجدلية الهيغلية بين "العبد والسيد"، أما منظور الخطيبي فيندرج ضمن "فكر الاختلاف". نعلم أن أصحاب هذا الفكر عابوا على التناقض الجدلي كونه لا يذهب بالاختلاف إلى أبعد مدى، إذ سرعان ما يرده نحو التطابق. فليس التناقض عند الجدليين اختلافا أكبر في نظرهم إلا نسبة إلى التطابق وبدلالته. وهم يعتبرون أن الذات مشروخة منخورة، وهي في تباعد ملازم عن نفسها، لذا فهم لا يحتاجون إلى تعارض "خارجي" ما داموا ينظرون إلى الآخر على أنه بُعدُ الذات عن نفسها. فليس السلب عندهم هو ذاك الذي يَفِد من خارج الذات ليتعارض معها، وإنما ما ينخرها من الداخل. السلب هو حركة تباعد الذات عن نفسها، والأنا هو دائما آخر، كما قال الشاعر رامبو.

تعقيدات الصراع

فبينما يرى الخطيبي "أن أوروبا حالة فينا"، فإن فانون يفكر ضمن ثنائية نحن/هم. صحيح أنه يرى، هو كذلك، أن أوروبا "متورطة في تكوين الذات المستَعمَرَة"، سواء من خلال اللغة، أو من خلال المعرفة والقيم الرائجين، إلا أنه ينظر إليها كـ"آخر خارجي". كأن الخطيبي يأخذ عليه كونه يعيد إنتاج المنطق الاستعماري، فيقصي "أوروبا كليا"، ويميل إلى تبسيط الصراع، واختزاله في ثنائية المضطهَد/ المضطهد، مغفلا التعقيدات الثقافية والاقتصادية التي يعرفها العالم اليوم، تلك التعقيدات التي غيرت أساليب الصراع وآليات الهيمنة التي لم يعد من الممكن مقاومتها بإغفالها والتغاضي عنها، والاكتفاء بالنداء بـ"أن نترك أوروبا التي لا تتوقف عن الحديث عن الانسان، بينما هي تقتله"، كما يقول كتاب "معذبو الأرض".

قد يقال إن منطق فانون كان الأنسب والضروري في ظروف المقاومة المسلحة، لكن مرحلة ما بعد الاستعمار، كما يرى الخطيبي، ربما تحتاج إلى منهج مغاير يفكك التشابكات المعقدة بين الذات والآخر، فيخضعهما لـ"نقد مزدوج". فربما كان هذا النقد اليوم هو الكفيل بأن يقوض أسس السيادة ويعيد النظر في أصوله وأسسه. فبما نحن عالم ثالث، كما يقول، "ليس علينا أن نسلك إلا مسلكا ثالثا ليس هو مسلك العقل ولا مسلك اللاعقل كما فكر فيهما الغرب، وإنما خلخلة مزدوجة تقول بفكر متعدد لا يختزل الآخرين (أفرادا وجماعات)، ولا يضمهم إلى دائرة اكتفائه الذاتي. إذ إن على الفكر أن يتجنب هذا الاختزال، إذا هو أراد ألا ينظر إلى مجاله الخاص على أنه الكون في مجموعه، ذلك الكون الذي ينخره التباعد، وتتوزعه الهوامش والأسئلة الصامتة. إذ ليس علينا أن نظل على هامش المنظومة المعرفية الغربية، فنحن لن نوجد داخلها إن نحن ظللنا تابعين لها، ولا خارجها إن لم نعمل فكرنا في الخارج الذي يؤسسها، ونفكك العلاقة التي تربطنا بها". ربما من أجل ذلك كان الخطيبي كتب: "اعتقدت دوما أن ما يحمل اسم التفكيك déconstruction هو شكل جذري من أشكال التحرر من الاستعمار décolonisation".

• عن مجلة المجلة

فرانز فانون.. مئة عام على "معذّبو الأرض"

علـــي سفــر

قد يبدو غريباً للبعض أن تستدعي الذكرى المئوية لميلاد المفكر والمناضل المناهض للاستعمار فرانز فانون التفاتة واهتماماً في زمن انسحبت فيه أفكاره، لا لأنها قد بَليَت، بل لأن ثمة تراجعاً في العناوين الكبرى للمواجهة مع الكولونيالية، أمام جماهير تحوّلت اهتماماتها بعيداً عن التفكير في مصائرها الوطنية، بعد غرقها في يوميّاتها المُلحّة.

لكن الاستغراق في الواقع المحلي لا بد أن يُعيدنا إلى نقطة تلتقي فيها تحليلات فانون مع الرؤى العميقة التي تدرس أحوال الناس، وتستكشف أثر السياسات الاستعمارية تاريخياً على واقعهم الراهن. ومن هذا المنظور يمكن إدراك سرّ هذا الحضور المستمر لفانون، رغم عمره القصير، وإنتاجه المدون القليل نسبياً.

الاحتفاء بمئوية ميلاد فانون، ووفق الأجندة العالمية المُسخَّرة لهذه المناسبة، انطلقت فعالياته منذ الشهر الثاني من هذا العام، وستستمر حتى نهايته. فقد أُقيم مؤتمر دولي في كلية الطب بجامعة سوسة التونسية، كما أقيمت فعاليات متعددة في وطنه جزر المارتينيك، ويَلفت الانتباه منها مؤتمر مسخَّر للذكرى يُقام هذه الأيام في جزر الأنتيل، يحمل عنوان كتابه "معذَّبو الأرض"، ويُكرِّم إرث فانون بثلاثية تضامنية تشمل شعوب هايتي، والكاناك (كاليدونيا الجديدة)، والشعب الفلسطيني، ضمن مشروع فكري يرفع صوت التضامن العابر للقارات.

وُلد فرانز فانون في العشرين من يوليو/تموز عام ١٩٢٥ في المارتينيك، وغادرها عام ١٩٤٣ ليقاتل في صفوف قوات فرنسا الحرة ضد النازية. درس الطب النفسي في مدينة ليون بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥١، ثم عمل في مستشفى البليدة بالجزائر عام ١٩٥٣، حيث انخرط سريعاً في الثورة الجزائرية. تُوفي في السادس من ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٦١، ولما يبلغ السادسة والثلاثين من عمره.

أصدر فانون كتابين أساسيين، هما: "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" (١٩٥٢)، الذي كشف فيه عن تشوّه الهوية لدى المستعمَرين تحت سطوة الاستعمار الثقافي والاغتراب، إذ يُرغَم الإنسان على النظر إلى نفسه بعين الآخر، فيكفّ عن أن يكون هو. تحدّث عن "الأسود الذي يرى نفسه من خلال الأبيض"، وعن الداخل الذي صار مسكوناً بالخارج، وعن اللغة التي فقدت براءتها وصارت وسيلةً للاستلاب. لم يكن الكتاب دراسة أكاديمية، بل توضيحاً مهمّاً بأن الاستعمار لا يحتل الأرض فقط، بل يحتل الوعي. وأن الجلوس إلى طاولة واحدة مع المستعمر ليس فعل نُضج، أو مكسباً يُفتخر به، بل هو أحياناً قناعٌ أبيض لبشرة سوداء ممزَّقة.

والكتاب الثاني هو "معذَّبو الأرض" (١٩٦١)، الذي أصدره في خضمّ الثورة الجزائرية، ويُعدّ من أبرز أعمال الفكر السياسي في القرن العشرين. قدّم فيه تشريحاً جريئاً للعنف الثوري بوصفه أداةً للتحرر الوطني. في هذا النص، لم يُدافع فانون عن العنف باعتباره غريزة، بل بوصفه فعلاً ضرورياً في مواجهة عنف بنيوي يمارسه الاستعمار. فالاستعمار، كما قال، لا يفهم إلا لغةً واحدةً: القوة. لكن العنف عند فانون لم يكن هدفاً، بل وسيلة لتحرير الإنسان من حالة دونية مفروضة، ولتحقيق ولادة جديدة. من دون هذه الولادة، تبقى الشعوب رهينة الاستعمار، حتى لو انسحب المستعمر عسكرياً. ولهذا كان فانون واضحاً في تحذيره من الاستقلالات الكاذبة، ومن النخب التي تخلف الاستعمار لتعيد إنتاجه بثياب وطنية. في هذا الكتاب، ذهب فانون نحو موقف واضح ضد ما رآه قادماً: النخب الوطنية التي تعيش على هامش الاقتصاد الكولونيالي.

لا يمكن حصر فانون في تعريف واحد. فقد كان طبيباً نفسياً، ومناضلاً سياسياً، ومثقفاً متمرّداً، وكاتباً ساخطاً، وشاهداً على العنف الاستعماري بأبشع صوره. واختار، وهو في الثلاثين من عمره، أن ينحاز بكل وعيه وجسده إلى الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، وأن يتحوّل من محلّل للمرض النفسي الذي يصنعه القهر، إلى مشارك في محاولة علاجه بالنار والدم.

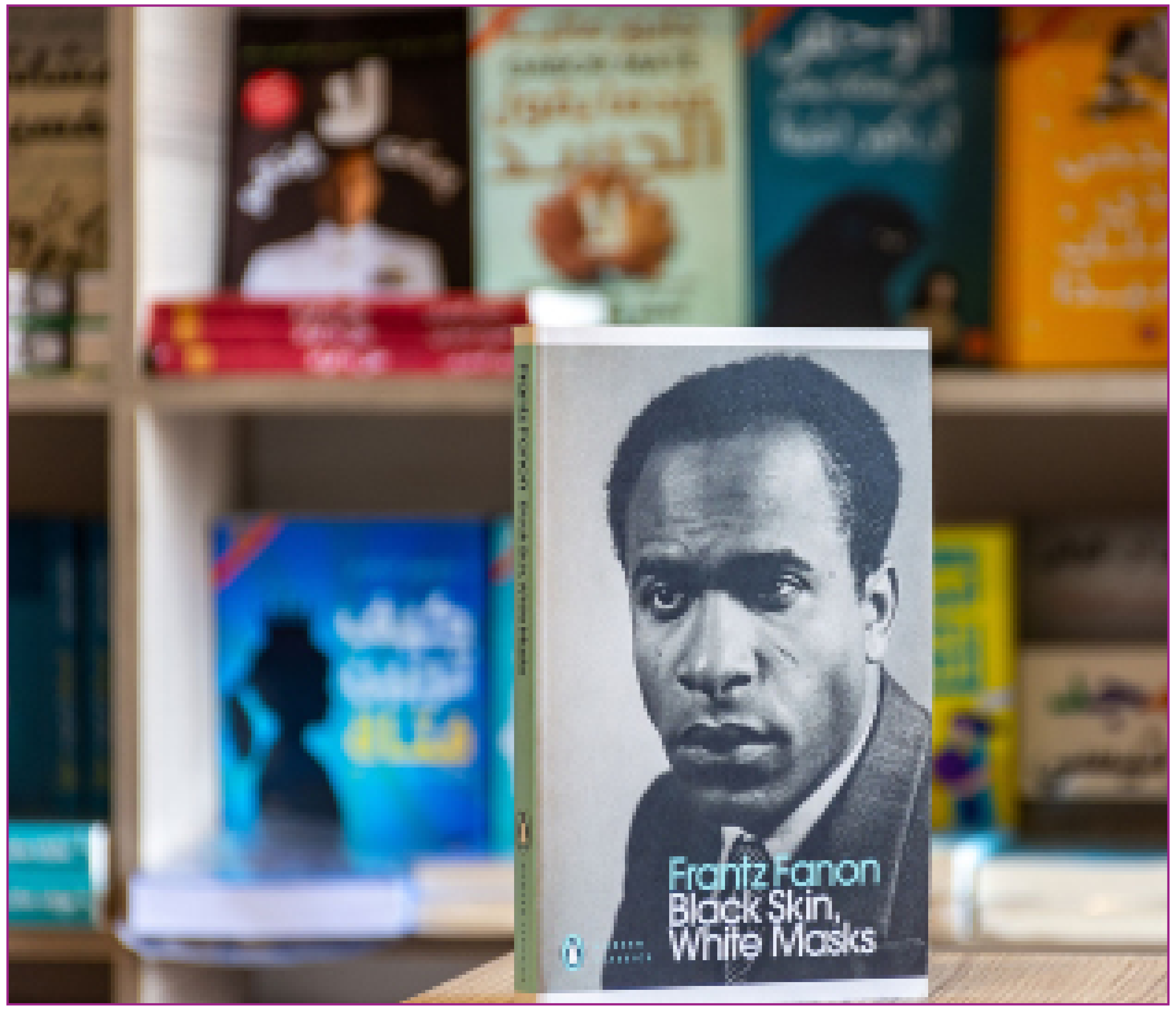

ما يجعل فانون حاضراً اليوم ليس فقط نضاله، بل فكره الذي تشكّل على المتراس. فلا يزال يُقرأ في عالم لم يُنه استعمارَه، بل أعاد إنتاجه بأقنعة أكثر حداثةً، وبصمت أكثر ضجيجاً. حيث تُستعاد نظرياته في سياقات متعددة: في نضال السود بأميركا ضد العنصرية البنيوية، وفي نقد النيوليبرالية التي تُعيد إنتاج التبعية الاقتصادية والثقافية، وفي محاولات بناء خطاب ثقافي جديد خارج المركز الأوروبي. وأيضاً في مساءلة "الدولة الوطنية" التي فشلت في تحرير الإنسان.

ومن هذه النقطة يمكن استحضار فكره في نقد التجارب التي خاضتها الدول المتحررة من الاستعمار، وقراءة العطب البنيوي الذي أصابها منذ مرحلة ما قبل الاستقلال. إذ يمكن إسقاط المسار العام للثورة الجزائرية التي سلكت طريق العنف المسلح نحو الحرية، مقارنة باستقلال الكونغو الذي تحقق عبر مفاوضات رسّخت حضور المستعمر في جسد الدولة الجديدة من خلال إعادة بناء الحياة على إيقاع الهيمنة، بعد تحوّلها من حضور عسكري مباشر إلى حضور ثقافي واقتصادي.

هذه التحليلات، حين تُسقط على واقع البلاد التي لا تزال حتى اليوم تعاني فشلاً في بناء مشاريعها الوطنية، تطرح سؤالاً حول ما تم رسمه لها منذ مرحلة السيطرة الاستعمارية. والأمر لا يتعلق بنظريات مؤامرة، بل بسياق من العلاقة التبادلية، يرى فيها أصحاب القوة ضرورة استمرارها ما دامت تخدم مصالحهم، وهو ما يتوافق مع مصالح الفئات المحلية المستفيدة من الواقع المفروض بقوة المستعمرين.

وحين تلجأ الثورات إلى العنف المضاد من أجل التحرر، تُعاد صياغة المصالح مع المنتصرين الجدد، الذين يضمنون استمرار سيطرتهم باسم إرثهم النضالي. وهكذا، تقمع القوى السياسية المعارضة باسم "الثورة"، ويتحوّل حضور السلطة الديكتاتورية إلى قوة احتلال جديدة تُعيد إنتاج القمع باسم التحرر، فيصبح النضال مركّباً، يحتاج إلى أدوات تتطور بالتوازي مع تطور أدوات القمع نفسها.

حدث هذا مراراً، في تجارب متعددة، خصوصاً في العالم العربي، ولا سيّما في التجربة السورية، حيث لا تزال تحليلات فانون تحتفظ براهنيتها، خصوصاً تلك التي وردت في كتاب "معذَّبو الأرض". فقد كتب فيه ما يشبه البيان النقدي ضد "البرجوازية الوطنية" التي تتسلم السلطة بعد الاستقلال في كثير من الدول الأفريقية والآسيوية، لكنها تفتقر إلى القوة الاقتصادية والإبداع الثقافي، فتتحوّل إلى وسيط تابع، تعيش على فتات الشركات الأجنبية. إنها "طبقة تستهلك ولا تُنتج، وتُقلّد المستعمر ولا تتحرّر منه"، تستعير اللغة والذوق والنموذج من المستعمر، ثم تزعم بناء الأمة. و"بعد الاستقلال، يتحوّل القصر الرئاسي إلى نسخة مشوّهة عن مقرّ الحاكم العام، ويتحوّل الاستقلال إلى استمرار للهيمنة بوسائل أخرى". وفي نهاية المطاف، "هؤلاء الذين ادّعوا تمثيل الشعب، يتحوّلون إلى أوصياء عليه".

ومن أجل ألّا يبقى المستعمر حاضراً إلى الأبد، يقترح فانون بديلاً عن هذا الواقع البائس: ثورة شاملة تطاول البنى الاقتصادية والثقافية والسياسية، وبناء اقتصاد مستقل فعلياً لا يعتمد على رأس المال الأجنبي، وانبثاق نخبة جديدة متجذّرة في الأرض والشعب، لا نخبة ناطقة بلسان المستعمر. الثورة عند فانون لا تكتمل بالعلم والنشيد، بل بإعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان والأرض، بين الشعب واللغة، بين الهوية والمستقبل. وهي ثورة تبدأ في النفس، كما تبدأ في السياسة.

ومن اللافت أن الذكرى المئوية للثورة السورية الكبرى ضد الانتداب الفرنسي، التي بدأت في ٢١ يوليو/تموز ١٩٢٥، تتزامن مع الذكرى المئوية لميلاد فانون. هذا الاقتران يمنح مساحة إضافية للتأمل في زمن مقاومة الاستعمار، والسير نحو الاستقلال، ومراجعة المشاريع الكبرى التي اشتغلت عليها النخب السياسية آنذاك، وهي تستعد لتأسيس الدولة الوطنية.

في سبعينيات القرن الماضي، كان كتاب "معذَّبو الأرض" يُدرَّس، ولو من خلال فصول مختارة، في المناهج الدراسية السورية. لكن مع تغير المناهج والتوجهات الرسمية، أُقصي من الصفوف المدرسية، وبقيت الترجمة الرائعة التي أنجزها الراحلان سامي الدروبي وجمال الأتاسي (١٩٦٦) معروضة بكثافة في معارض الكتب وعلى أرصفة الجامعات. لكنّ الحضور الأكبر لفانون لم يأت من الكتب، بل من الواقع نفسه. واقعٌ لا يختلف كثيراً عن المعطيات التي كتب عنها.

• عن العربي الجديد

الإرث الفكري لفرانز فانون

حـمـزة حـمـوشـن
ترجمة: نادية مكاوي

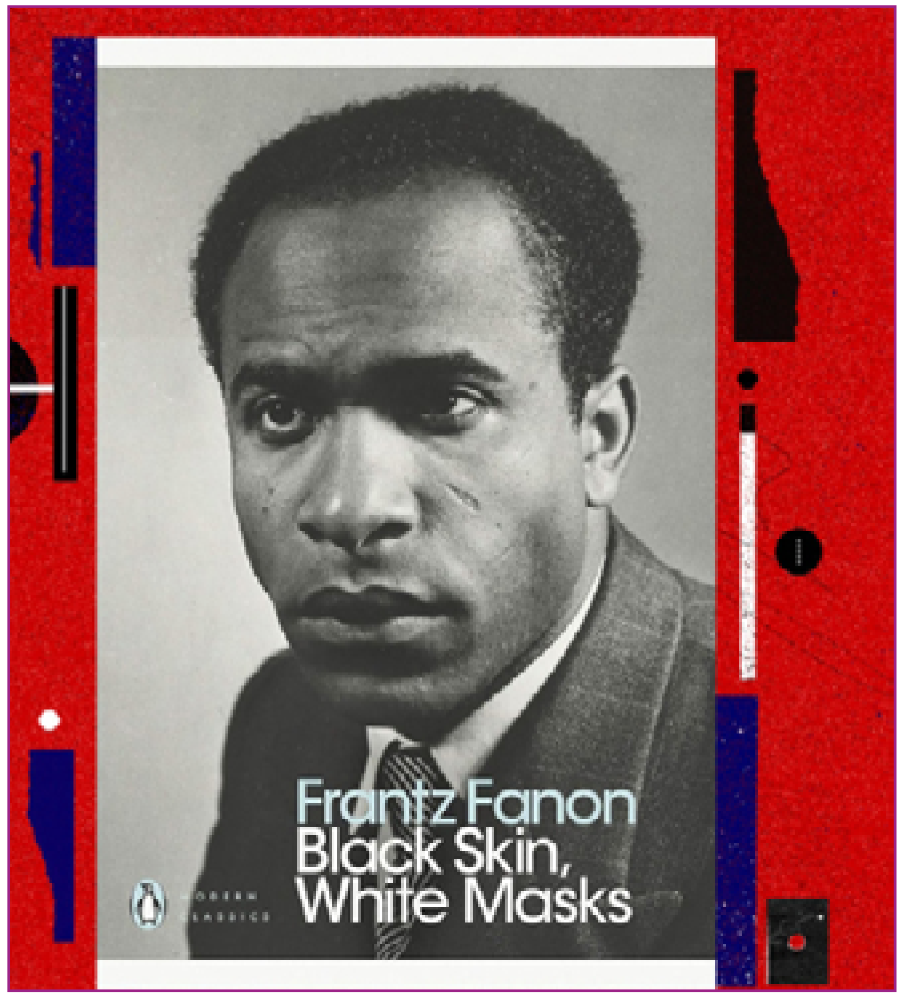

تُوُفّيَ فرانز فانون قبل أشهر قليلة من استقلال الجزائر في شهر يوليو عام ١٩٦٢، ولم يعش ليرى بنفسه تحرر بلده بالتبني من الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، وهو شيء كان يعتقد أنه أصبح أمرًا حتميًا. وكان هذا المفكر الراديكالي والثوري قد كرّس نفسه وجسده وروحه للتحرر الوطني الجزائري، وكان يُعَدّ مرآة من خلالها فهم عدد كبير من الثوريين الموجودين في الخارج الجزائر، وأحد الأسباب التي ساهمت في أن تصبح البلاد مرادفا لثورات العالم الثالث.

وبفضل ثقَل نضالها في الماضي القريب، وعلى وجه الخصوص نضالها الطويل لنيل الاستقلال الذي مثّل نموذجًا يحتذى به للعديد من جبهات التحرير في شتى أنحاء العالم، ونظرًا لدبلوماسيتها الحازمة وسياستها الخارجية الجريئة في عقد الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كانت العاصمة الجزائرية ستصبح قبلة لجميع الثوريين.

وكان أميلكار كابرال قد صرح في مؤتمر صحفي أقيم على هامش مهرجان الوحدة الأفريقية الأول الذي عقد في الجزائر العاصمة عام ١٩٦٩ قائلاً: "التقط قلمًا وسجل ملاحظة: يحج المسلمون إلى مكة، ويحج المسيحيون إلى الفاتيكان، وتحج حركات التحرر القومية إلى الجزائر!".

ومن المؤكد أن فانون كان سيفتخر بهذه اللحظة من تاريخ الجزائر وأفريقيا. وكان المهرجان يتميز بالحماسة الثورية وبأفكاره حول الثقافة الكفاحية التي كانت تُزكيها الصراعات اليومية للناس. وكانت الأجواء الحماسية التي استمرت لأيام قلائل في شهر يوليو قد تم تصويرها في أحد الأفلام المهمة والمؤثرة للمخرج ويليام كلاين بعنوان: "مهرجان الوحدة الأفريقية في الجزائر، ١٩٦٩"، والذي يشهد بأن هذا الاجتماع المناصر لأفريقيا لم يكن مجرد شعار أو طوباويّة سخية، ولكنه كان يمثل أيضا اجتماعًا حقيقيًا للثقافات الأفريقية بشكل منسجم في مواقفها الشاجبة للاستعمار والكفاح من أجل الحرية.

وكان بعض القادة السياسيين من أمثال أنطونيو أجوستينيو نيتو وكابرال يضعون هذه الثقافة على رأس اهتماماتهم لأنهم ربطوها بالتحرر الذي صنفوه نظريًا كشكل من أشكال العمل السياسي، وكرروا بقوة كلمات فانون في كتاب معذبو الأرض: "وذكروا أن الثقافة القومية ليست مجرد فولكلور، أو شعبويّة مجردة تعتقد أن بإمكانها اكتشاف الطبيعة الحقيقية للناس. هي لا تتكوّن من رواسب جامدة ناتجة عن تصرفات غير مبررَة، أي الإجراءات التي تكون أقل ارتباطًا بالواقع الحالي للشعب... إنّ الثقافة الزنجية الأفريقية تتخذ شكلها الجوهري حول نضالات الشعوب وليس حول الأغاني والقصائد الشعرية والعادات والتقاليد الشعبية." ويجدر بنا أن نضع هذا الأمر في الاعتبار عندما نفكر في دور الثقافة ومفهومها اليوم. هل هي ببساطة ثقافة تسلي الناس وتلهيهم عن القضايا الحقيقية؟ أم أنها ثقافة تتحدث للناس وتساهم في تقدم مقاومتهم ومظاهر نضالهم؟ وهل هي ثقافة مستقلة وحرة تعزز المعارضة والنقد أم أنها ثقافة فولكلورية تخضع للرعاية الخانقة من بعض النخب الاستبدادية؟

وكان لدى فانون آمالًا عريضة وكان يؤمن بشدة بالجزائر الثورية، ويشهد كتابه الشهير الذي يحمل عنوان "دراسات في الاستعمار البائد" (أو حسبما هو معروف بالفرنسية باسم L'An Cinq de la Révolution Algérienne) على ذلك، ويظهر كيف أن التحرر لا يأتي كهبة، ولكن الجماهير تنتزعه انتزاعًا بأيديها، ويتحولونَ بأنفسهم حينها.

وكان فانون قد أكد بقوة على أنّ مقاومة الجماهير للهيمنة الإمبريالية والتغلغل الاستعماري هو أرقى شكل من أشكال الثقافة والتقدم، حيث كان يرى أن الثورة عبارة عن عملية انتقالية ستؤدي إلى خلق "أرواح جديدة". ولهذا السبب، اختتم فانون كتابه الصادر في عام ١٩٥٩ بالكلمات التالية: "إنّ الثورة المتعمقة الحقيقية، تلك التي تغير الإنسان وتُجددُ المجتمع على وجه التحديد، لقد وصلت إلى مرحلة متقدمَة. هذا الأكسجين يخلق ويُشَكلْ إنسانية جديدة – وهذا أيضًا، هو الثورة الجزائرية".

وكان اهتمام فانون بما تفعله الجماهير وتقوله وتفكر فيه، واعتقاده بأن الجماهير وليست القيادات أو الأنظمة هي من تصنع التاريخ وتقرره، يأتي على رأس أولوياته في كتبه. ومن المهم تحليل شهادة فانون لأنها توضح كيف تعثر الجماهير على وسائل إعادة تنظيم أنفسها، في خضم أسوأ الكوارث، والحفاظ على تواجدها عندما يكون لديها هدفٌ مشترك. وفي هذا السياق، تحظى أوصاف فانون لسلوك الجماهير بأهمية كبيرة لأنها تظهر كيف تواصل الجماهير العيش وكيف تتقدم في حياتها.

ويوضع هذا التركيز والارتباط القوى بالمعذبين في الأرض في مقارنة مع النفور الغريزي تجاه البرجوازية القومية التي ستخدع الجماهير وتوقف التحرر وتنشىء نظامًا وطنيًا للطغيان والاستغلال يذكرنا بالنسخة الاستعمارية. وقد لاحظ فانون بشكل محق كيف يمكن للوعي الوطني أن يؤدي بسهولة كبيرة إلى حدوث "تصلب متجمد" عن طريق استبدال السادة البيض الراحلين بنظرائهم الملونين فحسب.

بعد مرور أربعة عقود على وفاته، يبقى السؤال الذي يطرح نفسه: "لماذا يُعتبر فانون مهمًا الآن؟" بدلًا من، "هل هو مهمٌ على الإطلاق؟" وسيكون من المفيد استكشاف كيف كان مِن الممكن أن يفكر هذه الشخص الثوري ويتصرف في مواجهة القضايا المعاصرة في أفريقيا والعالم. ولا زالت أعمال فانون، التي كتبت منذ خمسة عقود مضت تحمل قوة تنبؤية كوصف دقيق لما حدث في الجزائر وخارجها. وعند قراءة كلمات فانون وخصوصًا "مزالق الوعي الوطني" في فصله الشهير بكتاب "معذبو الأرض" (بناءً على تأملاته المعتمدة على تجاربه في دول غرب أفريقيا بالإضافة إلى اهتماماته بشأن الثورة الجزائرية)، لا يمكن للمرء أن يمنع نفسه من الاستغراق في هذه الحقيقة والبصيرة عن إفلاس وعقم البرجوازية القومية في قارة أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط اليوم والتأثر بهما، تلك البرجوازية التي كانت تميل لاستبدال القوة الاستعمارية بنظام طبقي جديد يكرر الهياكل الاستعمارية القديمة للاستغلال والاضطهاد.

واليوم، يمكننا أن نرى كيف أنّ دولًا في جميع أنحاء العالم المستعمَر سابقًا "خلّفت أمراض السلطة" كما وصفها "إقبال أحمد"، وهو ما يؤدي إلى ظهور دول الأمن القومي والأنظمة الاستبدادية وأنظمة حكم الأقلية (الأوليغارشيات) وأنظمة الحزب الواحد. ويتوافق ما كان يخشاه فانون مع وضعية الجزائر اليوم في ظل لعب أموال النفط لدور مهم جدًا في تهدئة السكان ودفع مستحقات قوات الأمن المتضخمة والمنتشرة في كل مكان. ولم تكن رؤية فانون ومواقفه السياسية تروق ولن تروق للطبقة الحاكمة، ولهذا السبب يتم تهميشه اليوم والتقليل من شأنه إلى مجرد شخصية مناهضة للاستعمار وتجريده من هجومه الحماسي الذي شنه ضد الغباء والفقر الفكري والروحي للبرجوازية القومية.

وكما قال إدوارد سعيد، تلوح العبقرية التنبؤية لكتاب "معذبو الأرض" عندما يستشعر فانون الهوّة بين البرجوازية القومية في الجزائر والنزعات التحررية لحركة جبهة التحرير الوطني. فانون كان من أوائل وأهمّ العلماء النظريين في مناهضة الإمبريالية وكان يدرك أن النزعة القومية المتعصبة اتّبعت نفس المسار الذي حفره الاستعمار الذي كان في الحقيقة يوسّع هيمنته رغم ظهوره بمظهر المتنازل عن السلطة للبرجوازية القومية. وطرح فانون هذه الفكرة لنا بصراحة عندما قال: "يعلمنا التاريخ بوضوح أن المعركة ضد الاستعمار لا تسير بشكل مستقيم على طول خطوط النزعة القومية. ونبهنا فانون بعد ذلك بأننا ينبغي أن نتخذ خطوة سريعة للانتقال من الوعي القومي إلى الوعي السياسي والاجتماعي إذا كنا نرغب بالفعل في أن تتجنب بلادنا التراجع واشتبه الأمور.

وفي مثل هذه الأوضاع، تستغني البرجوازية القومية عن الشرعية الشعبية وتدير ظهرها أكثر وأكثر للأرياف وتغض الطرف عن حقائق التنمية غير المتوازنة وتكون مهتمة فقط بتصدير الأرباح الهائلة إلى الدول الأجنبية، أرباحٌ تجنيها من استغلال الشعب. وتؤكد الأحداث الحالية على صحة هذا التّأكيد حيث يمكننا أن نرى الفساد الفاضح والمستشري و"المُقنن" في الجزائر ونيجيريا ومصر وتونس في عهد زين العابدين بن علي وجنوب أفريقيا، على سبيل المثال لا الحصر. وفي الجزائر مثلا، تستحوذ البرجوازية الغير الوطنية، العقيمة وغير المنتجة على اليد العليا في إدارة شؤون البلاد وفي توجيه خياراتها الاقتصادية. وتُشكل هذه النخبة البرجوازية أكبر تهديدًا لسيادة الأمة لأنها تَبيع الاقتصاد إلى العواصم الأجنبية والشركات متعددة الجنسيات وتتعاون مع الإمبريالية في "حربها على الإرهاب"، وهي ذريعة أخرى لتوسيع هيمنتها والصراع من أجل الاستيلاء على الموارد وكانت البرجوازية هي من تخلت عن المشروع التنموي المستقلّ الذي تم طرحه خلال عقد الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وكما وصفها فانون كانت "عاجزة عن طرح أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلّى فيها روح الابتكار، ولم تنجح حتى في مجرّد الحصول على بعض التنازلات من الغرب، مثل الاستثمارات التي كانت ستصبح ذات قيمة لاقتصاد البلاد".

وعلى النقيض من ذلك، تقدّم البرجوازية الآن تنازلًا تلو الآخر تشمل مشاريع الخصخصة العمياء والمشاريع الأخرى التي ستقوض سيادة البلاد وستعرض سكانها وبيئتها للخطر، مثل مشروع استغلال الغاز الصخري. واليوم، تتبع الجزائر وتونس ومصر ونيجيريا والسنغال وغانا والجابون وأنجولا وجنوب أفريقيا، على سبيل المثال، الإملاءات التي تفرضها وسائل الاستعمار الجديد مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وتتفاوض (الجزائر) على الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية. ولا تزال الدول الأفريقية الأخرى تستخدم الفرنك الأفريقي، وهو عملة موروثة من فترات الاستعمار، ولا يزال يخضع لسيطرة وزارة الخزانة الفرنسية. وكان فانون سيثور على هذا الغباء والغفلة الكبيرة. فكيف يمكننا الاستمرار في الخضوع للاستعمار والانحناء لكل حماقة من أجل إرضاء العواصم الأجنبية؟ وكان فانون قد تنبأ بهذا الوضع المشؤوم والسلوك المروع للبرجوازية القومية عندما أشار إلى أن رسالة البرجوَازية لا علاقة لها بإحداث نقلة للبلاد وتغيير أحوال الأمّة، بل جعل نفسها وسيطا بين البلاد وبين رأسمالية متفشية رغم اضطرارها للتّخفي، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناعِ "الاستعمار الجديد" وهذه هي النقطة التي يمكننا أن ندرك من خلالها القيمة الدائمة لتوظيف رؤى فانون النقدية عندما يصف لنا الواقع المعاصر في مرحلة ما بعد الاستعمار، وهو واقع شكّلته البرجوازية القومية "غير الوطنية... لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فضيع مناقض لمصلحة الأمة"، طريق تسلكه برجوازية تقليدية، برجوازية ارتضت في غباء وحمق وحِطّة ألّا تكون الا برجوازية".

هذا بالضبط ما حدث في الجزائر ودول أخرى في قارة أفريقيا. وتبدو هذه الأنظمة سعيدة بالدور الذي تلعبه كوكيل تجاري للعواصم الغربية، كما تبدو منشغلة فقط بملأ جيوبها في أسرع وقت ممكن وتجاهل الركود المؤسف الذي تغرق بلدانهم فيه بشكل أكبر وأكثر عمقًا. وكان فانون سيصاب بالصدمة بفعل التقسيم الدولي المستمر للعمل حيث لا يزال الأفارقة "يصدرون المواد الخام ويستمرون في لعب دورهم كمزارعين صغار لأوروبا يتخصصون في إنتاج المحاصيل الخام." وينبغي إعادة النظر والتفكير في نقد فانون للسياحة، التي رآها كصناعة جوهرية في مرحلة ما بعد الاستعمار. يدين فانون حقيقة تحول النخب القومية إلى "منظمين للحفلات" لنظرائهم الغربيين في خضم الفقر المدقع لشعوبهم. وأكد فانون على أن هذه النخب ستنظّم بلادها عمليًا كـ "ماخور لأوروبا" بسبب افتقارها للأفكار وانقطاعها عن شعبها[. وهذه ليست مجرد تجربة في إحدى بلدان البحر الكاريبي، ولكنها أصبحت تمثل تجربة العديد من الدول الواقعة في قارة أفريقيا مثل جنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد الفصل العنصري وكذلك تونس ومصر والمغرب.

"ففي هذه البلاد الفقيرة والمتخلفة، حيث تكون القاعدة هي أن تحيط الثروة الفاحشة بالفقر المدقع، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم؛ أي قوات الجيش والشرطة التي يشرف على توجيههما خبراء أجانب (وهذه قاعدة أخرى ينبغي عدم نسيانها). وتتناسب قوة الشرطة ونفوذ الجيش مع حالة الركود التي يعيش فيها سائر الأمة. وبفضل القروض السنوية، ينتزع الأجانب العديد من الامتيازات وتتعدد الفضائح ويزداد ثراء الوزراء وتتأنق زوجاتهم، وينتفع أعضاء البرلمان من مناصبهم، ولا يبقى شرطي ولا موظف بسيط من موظفي الجمارك إلا ويشارك وينضم إلى ركب الفساد الكبير".

تمثل هذه الفقرة الحانقة من كتاب "معذبو الأرض" تصويرًا دقيقًا جدًا للوضع في العديد من البلدان الأفريقية حيث يكون القمع وكبت الحريات هو القاعدة – معززة بالطبع بالتجربة الأجنبية–، وحيث ترسّخ النخب الجشعة الفساد وتخدم المصالح الأجنبية. وكان فانون واحدًا من بين المفكرين الراديكاليين القلائل الذين أشاروا إلى مخاطر النزعة الفطريّة (الأهلانيّة) – التي "تمت رعايتها بعناية" كما قال المفكر إدوارد سعيد – على إحدى الحركات السياسية الاجتماعية مثل حركة التخلّص من الاستعمار [١٧]. تراها تنتقل من مرحلة القومية إلى القومية المتطرفة، ثم إلى الشوفينية "التعصب القومي" وأخيرًا إلى العنصرية والقبلية.

ويتضح ذلك في العديد من الأيديولوجيات الإقصائية والعقائدية مثل العروبيّة وزنجيّة صنغور والدعوة إلى اتباع إسلام خالص وأصيل، هذه الأيديولوجيات كانت لها نتائج كارثية على الشّعوب. ولنعد مجددًا إلى تناول النموذج الجزائري، حيث تم تجاهل التعدديّة الثقافية لمصلحة تصور ثقافي محض وضيّق للهويّة الجزائرية، وعندما تمّ تهميش البعد البربري الأمازيغي من التراث الثقافي الجزائري وتقليصه إلى مجرد مظاهر فولكلوريّة، وعندما شاركت النخبة في سياسة التعريب المتصلبة، وعندما طرحت قراءة متحفّظة للدين ورؤية رجعية لدور المرأة في المجتمع عن طريق تبني إجراءات اجتماعية مُرضية للإسلاميين مثل قانون الأسرة الشهير والرجعي الصادر في عام ١٩٨٤.

وأشار إدوارد سعيد إلى أنه كانت هناك جهود إضافية بدت وكأنها تُبذَل في سبيل تعزيز فكرة أن مجرد كون المرءِ سوريًا أو عراقيًا أو مصريًا أو سعوديًا غاية كافية، بدلًا من التفكير بشكل نقدي، أو حتى جريء بشأن البرنامج القومي نفسه وتحتل السياسات القائمة على الهوية المكانة الرئيسية، كما "تنزع الوحدة الأفريقية قناعها وتنقسم إلى نزعات مناطقية داخل القوقعة الجوفاء للقومية نفسها" وكان فانون قد دافع عن تجاوز الخطوات الأولى للهوية القومية الحازمة نحو تحقيق التحرر الحقيقي الذي يشتمل على تحول الوعي من وعي قومي إلى وعي اجتماعي. وتمثلت رؤية فانون للجزائر في المستقبل، التي اشترك في تبنيها مع مرشده عبان رمضان، مهندس الثورة، في إنشاء مجتمع ديمقراطي علماني مع منح أولوية للمواطنة على حساب الهويات (العربية والأمازيغية والإسلامية واليهودية والمسيحية والأوروبية والبيضاء والسوداء وخلافه): "في المجتمع الجديد الذي يتم بناؤه"، حسبما كتب فانون في كتابه المُعَنْون "دراسات في الاستعمار البائد" يوجد جزائريون فقط. ولهذا السبب، فإن كل فرد يعيش في الجزائر يُعد جزائريًا، من البداية... ونحن نريد جزائر مفتوحة للجميع، يمكن لكل موهبة أن تترعرع فيها. ولم ينس فانون دور المرأة في المجتمع الجديد عندما قال إنه يجب بذل كل جهد ممكن لحشد الرجال والنساء بأقصى سرعة ممكنة، وحذرنا من "خطر تكريس التقاليد الإقطاعية التي تقدس تفوق وسيطرة العنصر الذكوري على العنصر الأنثوي. وأوضح فانون في مقالة كتبها في كتابه الصادر خلال عام ١٩٥٩، والذي يحمل عنوان "كشف النقاب عن الجزائر" كيف كانت النساء من العناصر الأساسية في الثورة الجزائرية، وكيف ساهمت ضروريات القتال في ظهور مواقف وتوجهات جديدة؛ حيث "اختفت تلك الميزة المُحَرَمة التي يتخذها الحجاب في الوضع الاستعماري اختفاءً شبه كلي في سياق النضال التحرري.

البدائل: لحظة فانونية ثانية؟

من سوء الحظ أن مثل هذه الرؤية النبيلة للمجتمع التعددي لم تتحقق بعد، وهذه هي اللحظة الفانونية الثانية للتخلص من الاستعمار، وهي لحظة تنفصل عن التنظيمات الهرمية والانقسامات والنزعات الإقليمية التي رسخها الاستعمار. وهذا الانفصال يتم عن طريق تبني الإنسانية العالمية (التي ستضم الرجال والنساء)، وعن طريق بناء حركات تضامن إقليمية ودولية.

لا يترك الواقع المعاصر المحزن (الذي وصفه فانون، وحذّر منه منذ خمسة عقود) أيّ شك حول ما إذا كان فانون حيًا اليوم، سيصاب بخيبة أمل كبيرة إزاء النتيجة التي تمخضت عن جهوده والجهود التي بذلها الثوريون الآخرون. واتضح أن فانون كان محقًا بشأن جشع وشقاق البرجوازيات الوطنية وحدود القومية التقليدية، ولكنَه لم يقدم لنا وصفة لإحداث الانتقال إلى نظام سياسي متحرر جديد بعد مرحلة تصفية الاستعمار. وربما، لا يوجد شيء من هذا القبيل يُطرح كخطة أو حل مُفَصّل. وربما نظر فانون إلى هذا الأمر على أنه عملية طويلة الأمد تستفيد من التطبيق العملي، وعلوا على هذا، من الثقة في الجماهير وإمكانياتهم الثورية في معرفة البديل التحرري.

ولكن فانون يحذرنا من أن الإثراء الفاضح والسريع الذي تحققه لنفسها تلك الفئة المحتكرة سيكون مصحوبًا بـ "صحوة حاسمة من طرف الشعب ووعي متزايد يبشر بحلول أيام عاصفة" [٢٤]. ويمكننا فجأةً رؤية منطَق الثورة والتحرّر لدى فانون، بوضوح جليّ في الانتفاضات العربية التي اندلعت في عام ٢٠١١. وقد تحول ما بدأ في تونس، ومن بعده ميدان التحرير في مصر إلى تمرّد عالمي جديد انتشر إلى أسبانيا، وانتقلت حركة الغضب منها إلى أثينا ضد إجراءات التقشف القاسية، مرورًا بالتمرّد المدني الذي اندلع في المملكة المتحدة والحشود الطلابية الهائلة المطالبة بإنهاء التعليم من أجل الربح في شيلي، وصولًا إلى حركة "Occupy" التي ثارت ضد هيمنة الـ ١٪، والانتفاضات التي اندلعت في تركيا والبرازيل وخلافه. وثارت الجماهير الشعبية في جميع هذه الدول ضد عنف العالم المعاصر، الذي لم يقدّم لهم سوى إفقارًا وتهميشًا متزايدًا، وإثراءً للقلة على حساب هلاك الأغلبية.

وكانت دولًا مثل مصر وتونس تتلقى إشادات على إنجازاتها الاقتصادية "الرائعة" مع معدلات النمو الاقتصادية المرتفعة التي لا تعكس على الإطلاق ترسّخ الفقر المدقع والتفاوت الاجتماعي العميق في هاتين الدولتين. واقتحمت الجماهير المشهد السياسي، واكتشفت إرادتها وقوتها السياسية وبدأت من جديد في صنع التاريخ. وكما قال المصريون عن بداية ثورتهم التي اندلعت في ٢٥ يناير: "عندما توقفنا عن الخوف، علمنا بأننا سننتصر." "ولن نسمح لأنفسنا مجددًا بالخوف من الحكومة. هذه هي الثورة التي اندلعت في بلادنا وعقولنا. [٢٥]. ولم يثر المصريون والتونسيون للمطالبة بالديمقراطية والحرية فحسب، ولكنهم ثاروا أيضًا من أجل الخبز والكرامة احتجاجًا على الظروف الاقتصادية والاجتماعية القمعية التي عاشوا في ظلها لعقود طويلة. لقد انتفضوا لمواجهة التقسيمات الجغرافية المانويّة للمضطهِد والمضطهَد (والتي وصفها فانون بشكل جيد جدًا في كتاب معذبو الأرض)، وهي التقسيمات الجغرافية التي يفرضها عليهم النظام الإمبريالي الرأسمالي العالمي.

ولكن، ما الذي يمكن أن يقوله فانون لنا عما حدث في مصر منذ عام ٢٠١١ مع وقوع الإنقلاب العسكري وتواصل الثورة المضادة؟ ربما كان فانون ليقول: "يجب عدم السماح للبرجوازية بالعثور على الظروف المناسبة لأن تتواجد وتنمو." وبعبارة أخرى، كان يجب أن يساهم الجهد المشترك للجماهير، والتي يقودها الحزب والمفكرون الذين يتمتعون بدرجة عالية من الوعي والمتسلّحين بالمبادئ الثورية، في سد الطريق أمام هذه الطبقة الوسطى المؤذية والعقيمة. ولكن، ما الفارق بين الليبراليين والإسلاميين أو الجنرالات العسكريين؟ الجواب هو أن كلا منهم ينتمي إلى البرجوازية العقيمة التي تتماشى مع متطلبات الرأسمالية النيوليبيرالية العالمية. كما كان فانون سيكرّر لنا الملاحظة المهمة التي قدمها عن بعض الثورات الأفريقية (ومن بينها الثورة الجزائرية)، وهي طابعها الموحّد الذي يهمّش أي تفكير في ايديولوجية سياسية واجتماعية بشأن كيفية تحويل المجتمع بشكل جذري. وهذه نقطة ضعف كبيرة شهدناها مجددًا مع الثورة المصرية. يقول فانون: "القومية ليست عقيدة سياسية أو برنامجا اجتماعيا". ويصرّ على ضرورة أن يمضي الحزب السياسي الثوري قدمًا في تحقيق مطالب الجماهير، وتثقيفهم سياسيًا، وعلى أن يكون هذا الحزب "أداة في أيدي الشعب والناطق القوي بلسان الجماهير والمدافع الصامد عنها". ويرى فانونٍ أن الوصول إلى مثل هذا التصور للحزب يحتم علينا أولا أن نخلِص أنفسنا من الفكرة النخبوية البرجوازية و"الموقف الازدرائي القائل أنّ الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها".

وكان فانون يرى أن كلمة "نحن" كانت دائمًا إبداعيّة، "وتشير إلى العمل السياسي والتطبيق العملي والتفكير الجماعي.، حيث كان يرى أنّه لا وجود للأمة إلاّ ببرنامج اقتصادي وسياسي اجتماعي "تنضجه قيادة ثورية وتتبناه الجماهير بفهم وحماس كامل.".

ولسوء الحظ، فإن ما نراه اليوم هو نقيض ما كان فانون ينادي إليه بقوة، حيث نرى بلاهة البرجوازيات المعادية للديمقراطية والمتجسدة في ديكتاتوريات قبلية وعائلية، برجوازيات تمنع الناس من المشاركة في تنمية بلادهم بعنف مفرط في كثير من الأحيان وتعزّز مناخ العداوة المتزايد بين الحكام والمحكومين. ويؤكد فانون، في نهاية كتابه "معذبو الأرض" أننا يجب أن نتوصل إلى مفاهيم جديدة من خلال تثقيف سياسيّ مستمر يثريه نضال الجماهير. ولا يتمثل التثقيف السياسي بالنسبة له في الخطابات السياسية فحسب، ولكنه يتمثل بالأحرى في "فتح عقول" الناس و"إيقاظهم" والسماح بتنمية ذكائهم]. وربما يكون هذا أحد أكبر تركات فانون. إنّ رؤيته السخية والثورية منعشة جدًا ومتجذرة في حركات النضال اليومية للناس التي تفتح آفاقًا لأفكار وصور جديدة. ويرى فانون أن كل شيء رهن بالجماهير، ومن ثَمّ جاءت فكرته عن المفكرين الراديكاليين المتفاعلين في ومع حراكاتها، مفكرين قادرين على التوصل إلى مفاهيم جديدة بلغة غير تقنية وغير محترفة.

وفي نفس السياق، يرى فانون أنّه يجب أن تتحول الثقافة إلى ثقافة نضال وأن يُركز التعليم على التحرر الكامل أيضًا. ويقول فانون: "إذا لم يتم توضيح معنى القومية، وإذا لم يتم إثراءها وتعميقها عن طريق تحول سريع جدًا إلى الوعي بالاحتياجات الاجتماعية والسياسية، أو إلى تطلّع إنساني بعبارة أخرى، فإنها ستفضي إلى طريق مسدودة غير نافذة". وهذا هو ما نحتاج إلى أن نضعه في اعتبارنا عندما نتحدث عن التعليم في المدارس والجامعات. ويكون التعليم المعادي للكولونيالية بالمعنى الفانوني تعليما يساعد في خلق وعي اجتماعي وأفراد اجتماعيين. ويرى فانون أن المناضل أو المفكر ينبغي ألا يتبع طرقًا مختصرة تقصي الشعب بدعوى إنجاز الأمور في أقصر وقت لأن هذا التوجه عقيم وغير إنساني. ويتعلق الأمر بالاجتماع والتفكير معًا، وهو أساس المجتمع المتحرر. وهذه ليست فكرة تجريدية فحسب، لأنّ فانون يقدّم لنا نماذج ملموسة من الثورة الجزائرية حين كتب عن إنشاء لجان إنتاجية/ استهلاكية بين الفلاحين وجبهة التحرير الوطني، لجانٌ أثارت أسئلة نظرية بشأن تكديس رأس المال: "لقد تمكنّا من تنفيذ هذه التجاربِ المهمّة في تلك المناطق بنجاح، حيث شاهدنا الإنسان يُخلق في الطلائع الثورية. لأن الناس بدأت في إدراك أن المرء يعمل بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه".

كما يخبرنا فانون عن تجربة أخرى في كتابه "دراسات في الاستعمار البائد" في مقال عن الإذاعة "صوت الجزائر "حيث يصف اجتماعًا عُقد في غرفة كان الناس يستمعون فيها إلى الإذاعة مع وجود مناضل (مدرّس) في وسطهم. ويمثل هذا النوع من الفصول الدراسِية التي كتب فانون عنها مساحة يكون فيها المدرس مناقشًا مطّلعًا، وليس مديرًا، ويكون الغرض من التثقيف السياسي فيها هو التمكين والتأهيل الذاتي. ولا يمكن لجهود المفكر والمناضل في خدمتهم للشعب أن تكون مثمرة بالفعل دون كونهم ملتزمين بتحقيق تغيير جذري، ودون تخليهم عن موقع الامتياز (الوصولية)، ودون تحدّيهم للإنقسامات السّائدة تحت الرأسمالية: انقسامات بين الزعيم والجماهير، بين العمل الذهني والعمل اليدوي، بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية، بين المركز والمحيط إلى غير ذلك.

ويرى فانون أنّه من الواجب نزع القداسة والوهم عن المركز (المدينة العاصمة والثقافة الرسمية والقائد المعيّن)، وبناء نظام جديد قائم على علاقات فعّالة تحُلّ محل التنظيمات الهرمية الموروثة عن الإمبريالية. ومن أجل تحقيق التحرر، ينبغي إطلاق العنان للوعي الذاتي، وهو عملية متواصلة لاكتشاف الذات، للتعاطف والتشجيع والتواصل مع الآخرين. وهذا درس أساسي يتعين علينا أن نأخذه بعين الاعتبار عند بناء حركات اجتماعية شعبية متنوعة، غير هرمية وتعددية. ولم يكن فانون ماركسيًا، ولكنه كان يؤمن بقوة أن الرأسمالية مع الإمبريالية وتقسيماتهما تستعبد الناس. وعلاوة على ذلك، يوضّح تشخيصه المبكر لعجز النُخب القومية عن الوفاء بمهمتها التاريخية الأهمية المتواصلة لفكر فانون في الوقت الحالي.

"معذبو الأرض" لفرانتز فانون..

لماذا لا تزال أفكار الفيلسوف الفرنسي المناهض للاستعمار ملهمة؟

عمران عبد الله

من الطب النفسي إلى النضال السياسي لمواجهة الاستعمار، ومن النشأة فرنسيا في ما وراء البحار إلى المقاومة في صفوف جبهة التحرير الجزائرية؛ تلك هي رحلة فرانتز فانون (١٩٢٥-١٩٦١) الذي ولد في جزر المارتينيك (المستعمرة الفرنسية الكاريبية) لأبوين من أصول أفريقية وألزاسية (شرق فرنسا).

في صباه سقطت فرنسا في قبضة النازيين عام ١٩٤٠، وحاصرت قوات حكومة فيشي الفرنسية (الموالية للنازيين) جزيرة المارتينيك، وأساؤوا معاملة السكان المحليين، مما عزز مشاعر الاغتراب لدى الصبي الذي استاء مبكرا من "العنصرية الاستعمارية" فهرب في سن ١٧ إلى دومينيكا للانضمام إلى القوات الفرنسية الحرة المناهضة لنظام فيشي.

انخرط فانون في جيش فرنسا الحرة، وانضم إلى حملة الحلفاء التي وصلت الدار البيضاء، ثم نُقل في ما بعد إلى قاعدة للجيش في بجاية على ساحل القبائل الجزائري، وغادر فانون الجزائر من وهران وخدم في فرنسا، لا سيما في معارك الألزاس، وعندما هُزم النازيون وعبرت قوات الحلفاء نهر الراين إلى ألمانيا، شعر بالتنكر لإسهام المقاتلين من فئة الجنود غير البيض لا سيما الجنود الأفارقة-الكاريبيين الذين تم نقلهم إلى نورماندي في انتظار إعادتهم إلى وطنهم.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٤٥، عاد فانون إلى جزر المارتينيك، وانخرط في الجدل الشيوعي، ثم عاد لفرنسا مجددا لدراسة الطب النفسي في ليون، حيث تعرف أيضا على الأدب والدراما والفلسفة، وخلال تلك الحقبة كتب مسرحيات أدبية وحصل على صفة الطبيب النفسي الذي حفز تفكيره في دور الثقافة في علم النفس المرضي.

أثناء إقامته في فرنسا، نشر فانون كتابه الأول "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" (١٩٥٢)، وهو تحليل للآثار النفسية السلبية للقهر الاستعماري على السود. وكانت ردًا على العنصرية التي عانى منها فانون أثناء دراسته الطب النفسي في جامعة ليون، ووصف فانون في الكتاب المعاملة غير العادلة للسود في فرنسا، وكيف رفضهم البيض، إذ كان لدى السود أيضًا شعور بالدونية عند مواجهة البيض. واعتقد فانون أنه رغم أنهم يستطيعون التحدث بالفرنسية، فإنهم لا يستطيعون الاندماج بشكل كامل في بيئتهم البيضاء.

سافر فانون بعد ذلك إلى الجزائر، حيث اتسعت خبراته العلاجية في الطب النفسي بالتوازي مع تبلور أفكاره، لا سيما من خلال تطوير العلاج الاجتماعي للتواصل مع الخلفيات الثقافية لمرضاه الذين كانوا من طرفي الصراع، وبعد اندلاع الثورة الجزائرية في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٤، التحق فانون بجبهة التحرير الوطنية متأثرا بتضامنه مع ضحايا التعذيب، وبحلول صيف عام ١٩٥٦ أدرك أنه لم يعد قادرًا على مواصلة العمل لصالح الحكومة الفرنسية، حتى بشكل غير مباشر من خلال عمله في المستشفى. وقدم "خطاب استقالته" الذي أصبح لاحقًا نصًا مهما في الدوائر المناهضة للاستعمار بالتأكيد على كون الصمت خداعا للأمانة.

ورحل فانون إلى تونس للعمل مع جبهة التحرير، وإضافة إلى عمله طبيبا عمل محررا في صحيفة "المجاهد" الناطقة باسم الجبهة، وشارك في مهام تنظيمية ودبلوماسية وحتى عسكرية، إذ رأى أن مقاومة الاستعمار لا تصلح من دون القوة، وعمل سفيرا لدى غانا لصالح الحكومة الجزائرية المؤقتة الموالية للثورة، وتنقل بين مدن وعواصم أفريقية عديدة، قبل أن يصاب بسرطان الدم ويذهب للاتحاد السوفياتي للعلاج.

وعندما عاد إلى تونس مرة أخرى، أملى كتابه الشهير "معذبو الأرض"، وألقى محاضرات لضباط جيش التحرير الوطني في غارديماو (غار الدماء) على الحدود الجزائرية التونسية، وسافر إلى روما للقاء الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) الذي تأثر به وكتب مقدمة كتابه الشهير.

من خلال تحليل ونقد القومية والإمبريالية، يقدم فانون مناقشة حول الصحة العقلية الشخصية والمجتمعية، ومناقشة كيفية تطبيق استخدام اللغة (المفردات) على تأسيس الهويات الإمبريالية مثل المستعمِر والمستعمَر، والقولبة النفسية.

يقترح فانون أن على الثوريين أن يستعينوا بالبروليتاريا المتناثرة (الطبقة الأدنى في التقليد الماركسي)، خاصة الفلاحين منهم لتوفير القوة المطلوبة للتمكن من طرد المستعمرين، مشيرا إلى أنهم يتمتعون باستقلال فكري كاف عن الأيديولوجية المهيمنة للطبقة الحاكمة الاستعمارية، ورأى أن المهمة تتمثل في إقناعهم بأنهم قادرون على التمرد ضد الوضع الاستعماري الراهن وبالتالي إنهاء استعمار أمتهم.

افترض فانون أن الاستعمار آلة عنف صريحة "تستسلم فقط عندما تواجه عنفا أكبر"، واشتهرت تلك المقولة التي تبناها نيلسون مانديلا (تلميذ غاندي) بعد أن توجه المؤتمر الوطني الأفريقي إلى "الكفاح المسلح" ردًا على مذبحة ضد السود في جنوب أفريقيا، حسب عرض لمجلة "نيويوركر" الأميركية.

من وجهة نظر فانون، كانت البرجوازية الغربية "عنصرية في الأساس"، و"أيديولوجيتها البرجوازية للمساواة والكرامة كانت مجرد غطاء للجشع الرأسمالي الإمبريالي"، وأشار إلى أن "الأسس المادية والأيديولوجية للغرب تكمن في تفوق البيض"، واتهم الإمبرياليين الأوروبيين "بالتصرف مثل مجرمي الحرب الحقيقيين في العالم المتخلف" عبر سياسات "الترحيل والمجازر والسخرة والعبودية" لتجميع الثروة.

ومن بين "أبشع جرائمهم" تمزيق هوية الرجل الأسود، وتدمير ثقافته ومجتمعه، وتسميم حياته الداخلية بشعوره بالدونية. كتب فانون أن الفكر الأوروبي تميز بـ"حوار دائم مع نفسه، ونرجسية بغيضة على نحو متزايد".

في الوقت نفسه، حث فانون المستعمَرين على "التوقف عن اتهام" أسيادهم البيض، والقيام بما فشل الأخير في فعله بشكل واضح؛ وبدء "تاريخ جديد للإنسان" يعزز "القيم العالمية". في رأيه، كانت القومية المناهضة للاستعمار مجرد خطوة أولى نحو نزعة إنسانية راديكالية جديدة "لأوروبا، لأنفسنا وللإنسانية". ونأى بنفسه بالفعل عن المطالبات بهوية وثقافة محددة عنصريًا، وكتب أنه لا ينبغي استبدال "الخطأ الأبيض الكبير" للغطرسة العرقية بـ"السراب الأسود العظيم"، محذرا "المحرومين" من تكرار الأخطاء.

عندما أنهى الإمبرياليون الغربيون احتلالهم الطويل لآسيا وأفريقيا، أصبح فانون مهووسًا "بلعنة الاستقلال"، وخائفا من تحول الدول الجديدة "لقوقعة فارغة" ووعاءً للعداءات العرقية والقبلية والقومية المتطرفة والشوفينية والعنصرية، وقدم تشخيصا حادا ومخيفا لحالة ما بعد الاستعمار، مناقشا كيف سيسعى الغرب للحفاظ على النظام الدولي الجائر الذي جعله غنيًا وقويًا، وكيف ستفشل الطبقات الحاكمة الجديدة في دول ما بعد الاستعمار في ابتكار نظام قابل للحياة خاص بها.

ورغم تحليله المميز للفجوة السياسية بين الازدهار الحضري والفقر الريفي، والعواقب الوخيمة للتنمية غير العادلة، وخبرته كطبيب نفسي التي جعلته مهتما بتأثيرات القوة النفسية وإسقاطاتها على الصور التي يفرضها المستعبدون على المستعبدين، فإن كثيرا من الانتقادات التي وجهت له أشارت إلى ضعف خبرته بالمجتمعات المحلية التي عاش فيها.

وفي التقرير الذي نشره موقع "ذا كونفيرسيشن" الأسترالي، تطرق نايجل سي غيبسون إلى بعض الاقتباسات المهمة من كتاب "معذبو الأرض"، بالنظر إلى أنه كان يكتب في وقت حصلت فيه أكثر من نصف دول أفريقيا على الاستقلال، فإن نقده للطبقة الوسطى والأحزاب القومية كان يُقرأ مثل سيناريو تكرر مرارًا وتكرارًا.

يقول عن دول الاستقلال الناشئة بنبرة متشائمة "تتضاعف الامتيازات وينتصر الفساد... اليوم النسور كثيرة جدًا ونهمة للغاية بما يتناسب مع الغنائم الهزيلة للثروة القومية. والحزب أداة حقيقية للسلطة في أيدي البرجوازية، يعزز عمل الآلة ويضمن تطويق الشعب وشل حركته".

وعن تفكيره في نزعة إنسانية جديدة، يقول في خاتمة كتابه "إذن، أيها الرفاق، كيف لا نفهم أن لدينا ما هو أفضل للقيام به من اتباع أوروبا".

أدرك فانون تمامًا حقيقة أن الاستعمار الجديد يمكن أن يكون أسود أو عربيًا، وانتقد الدول الأفريقية المستقلة حديثا لعدم فعلها أكثر من مجرد اتباع نموذج أوروبي حتى عندما استخدمت لغة الاشتراكية، وتطلعها إلى السيطرة على الأداة الاستعمارية -دولها ومؤسساتها- لخدمة مصالحها الخاصة. اعتبر فانون هذا نتاج أزمة الفكر وغياب فلسفة التحرير.

وأضاف "في أوروبا نفسها، حيث لم ينتهوا أبدًا من الحديث مع الإنسانية، لم يتوقفوا أبدًا عن التصريح بأنهم كانوا مهتمين فقط برفاهية البشرية. نحن نعرف اليوم ما دفعته البشرية من معاناة مقابل كل انتصار للعقل".

ويرفض فانون النزعة الإنسانية المعلنة في أوروبا القائمة على أساس الاستعمار والاستغلال والعبودية والعنف، لذلك قال إنه "يجب أن نجد شيئًا مختلفًا"، وإنه "إذا لم يتم تعديل ظروف العمل، فستكون هناك حاجة لقرون من العمل على أنسنة هذا العالم الذي أجبرته القوى الإمبريالية على النزول إلى مستوى الحيوانات".

• عن موقع الجزيرة

فرانز فانون.. المناضل الذي حارب الاستعمار الفرنسي والعنصرية

نادر كاظم

حَرص فانون أن يكتب سارتر مقدمة «معذبو الأرض» لأنه اعتقد أن شهرة الفيلسوف الفرنسي الكبيرة ستساعد كتابه على الانتشار. رحّب سارتر بفكرة كتابة المقدمة، بل إنه أعجب بالكتاب وبشخصية فانون حتى أن كلود لونزمان، محرّر مجلة «الأزمنة الحديثة» والصديق المشترك الذي رتّب اللقاء في روما، علّق بأنه «لم ير سارتر مفتوناً بأحد فتنته بفانون في هذا اللقاء». بقي الاثنان، وبحضور لونزمان والفيلسوفة الفرنسية مؤلفة كتاب «الجنس الآخر» سيمون دي بوفوار، يتحدّثان بلا انقطاع طوال اثنتي عشرة ساعة بدأت منذ وجبة الغداء إلى وجبة العشاء وطوال المساء حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لم يقطع هذا الحديث المتدفّق سوى تدخّل سيمون دي بوفوار الصارم وإصرارها أن سارتر بحاجة إلى النوم، فما كان من فانون إلا أن عبّر عن استيائه من هذا التصرّف قائلاً للونزمان: «أنا أكره الذين يدّخرون مواردهم»، وأضاف بأسلوب لطيف أنه مستعد أن «يدفع عشرين ألف فرنك يومياً لمواصلة الحديث مع سارتر». روى هذه القصة إدوارد سعيد أيضاً في فصل في كتبه بعنوان «عندما التقيت سارتر» ووردت الروايةُ في كتاب فخري صالح بعنوان «إدوارد سعيد: دراسة وترجمات» الصادر سنة ٢٠٠١.

لم ينم فانون يومها. فقد وصل لونزمان ودي بوفوار إلى المطار لاستقباله في قاعة الانتظار، وبقي فانون «في السيارة المتوجّهة إلى فندق [الذي يقيم فيه] سارتر، يتحدّث بشكل محموم عن المجهود الحربي...» في حرب التحرير الجزائرية التي كان يعرف كل تفاصيلها. واتصل حديث السيارة بالحديث الطويل مع سارتر، ثم تواصل مع لونزمان حتى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. كان فرانز فانون مفعماً بالحيوية قادراً، قبل أن يمرض، على العمل من سبع عشرة إلى عشرين ساعة في اليوم. لكن مرضه العصيّ على العلاج جعله لا يهدر ساعة واحدة في النوم، بل إنه كان يكره من يدّخر صحته وكأنها موردٌ يتناقص بالإنفاق.

وصفتْ سيمون دي بوفوار فانون في هذا اللقاء أنه «حادّ الذكاء ومفعم بالحيوية ويتمتع بروح الدعابة الكئيبة وحاد الطرح في الأسئلة وبارع في المحاكاة الساخرة وقادر على وصف الأحداث كما لو كانت تقع أمام أعين المستمعين». إلا أن فانون في اللقاء الثاني مع سارتر كان مجرّداً من كل هذه الصفات، ولو قُدّر لأحد أن يرى فانون في اللقاء الثاني فلن يصدّق أنه نفس الشخص الذي كان موجوداً في اللقاء الأول.

وصل فانون إلى روما في سبتمبر ١٩٦١ في طريقه إلى واشنطن للعلاج من سرطان الدم الذي جعله خائر القوى. وعلى خلاف اللقاء الأول، اضطر جان بول سارتر هذه المرة إلى الذهاب بنفسه إلى الفندق الذي يقيم فيه فانون الذي بدا منهكاً من الرحلة مستلقياً على سريره عاجزاً عن الحركة. حاول سارتر الحديث معه لكنه كان عاجزاً حتى عن الإجابة، ومع هذا كان وجهه متوتراً وظلّ يتحرّك على سريره وكأنه يُظهر الاشمئزاز من حالته الجسديّة. غادر سارتر اللقاء وهو في غاية الحزن، فشتان بين فانون في اللقاء الأول وفانون في اللقاء الثاني، بين فانون المفعم بالحيوية الذي لا يكف عن الحديث على مدى يوم كامل وفانون الآخر خائر القوى طريح الفراش، العاجز حتى عن الإجابة عن السؤال. لكن هذا ما كان يقصده فانون حين أبدى استياءه ممن يدّخر صحّته كبخيل يدّخر ماله لغده، ثم يموت قبل أن يأتي هذا الغد المنتظر.

كان فانون في اللقاء الثاني نسخةً حزينةً وذابلةً من نفسه في اللقاء الأول. وبقدر ما كان المرض ينتشر ويستفحل في جسد فانون، كان هذا الجسد يَضمُر وينكمش حتى فقد المفكّر الفرنسي الكثير من وزنه وبدا كطفل في العاشرة من عمره. كان كتابُ «معذبو الأرض» سيّدَ اللقاء الأول والثاني بين سارتر وفانون، وهو كذلك الحدّ الفاصل بين فرانز فانون قبل المرض وفرانز فانون بعد المرض. بدأ كتابته إبان مرضه وانتهى منه وقد هدّ المرض جسده. نُشر الكتاب وفانون على فراش الموت وقد قرأ كتابَه أو قُرئ عليه، ثم مات.

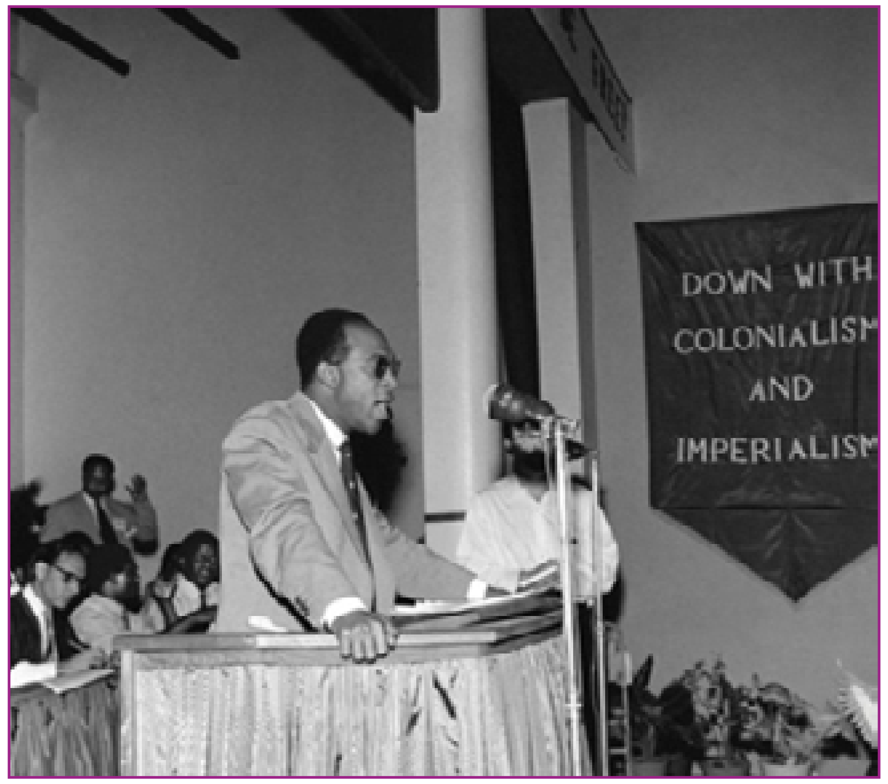

الإنسان عرضة لصروف الحياة وحوادثها التي تؤثّر فيه وتغيّره تغييراً كبيراً مثل المرض الخطير والشيخوخة. العنصرية تفعل ذلك أيضاً، والعنصرية موضوع كتاب فرانز فانون الأول «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء». تفرض العنصرية على الأسود أن يكون أكثر بياضاً أو أن يبقى حبيس سواده كارهاً الأبيض، وتفرض على الأبيض أن يكون منغلقاً على نفسه معتقداً تفوّقه. العنصرية بهذه الطريقة إنما تغيّر الأسود والأبيض معاً وتفعل بالاثنين ما يفعله المرض بضحاياه، فتحوّلهم إلى أشخاص مختلفين ومرضى نفسيين يحتاجون، برأي فانون، إلى العلاج لإخراجهم من هذه الحالة. يكتب فانون أن «الأسود عبدٌ لدونيّته، والأبيض عبدٌ لتفوّقه»، ويتصرّف الاثنان بطريقة مرَضية عُصابية. فالأبيض الذي يمقت الأسود ويحتقره مريضٌ عصابيّ مثل الأسود الذي يكره الأبيض، أو يسعى لأن يظهر أمامه وكأنه أكثر بياضاً مما هو عليه في الواقع.

يؤمن فانون بكونية إنسانيّة استمدّها من عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر، وظلّ يبشّر بها منذ أول كتاب له سنة ١٩٥٢ بعنوان «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» حتى آخر كتبه في سنة ١٩٦١ الذي حمل عنوان «معذبو الأرض». كان فانون يرى أن المسألة تتصل بالإنسان وليس بلون بشرته، فالعنصريّ يحتقر الإنسان حين ينفي الصفة الإنسانية عن الأسود، وحين يتوهّم أن الأبيض هو وحده الإنسان الحقيقيّ دون سواه من البشر. طالب فانون بالثورة والتحرير سنة ١٩٥٢ حتى قبل انضمامه للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٥٦. الثورة التي طالب بها فانون سنة ١٩٥٢ كانت ثورة إنسانيّة ضد النظام العنصري، ثورةٌ تمهّد الطريق «نحو إنسانيّة جديدة» وثورة تحرّر الإنسان من أمراضه وأغلاله ليعيش في عالم يؤمن بالإنسان بمعزلٍ عن لونه وعرقه.

أراد فانون أن يكون كتابه «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» بمثابة «دراسة عيادية سريرية» لمرضى العنصرية من البيض والسود معاً، فخصص كتابه للتركيز على العديد من الحالات التي عايشها أو صادفها مرّات عدة لمرضى كثيرين قصدوه طلباً للعلاج. من أمثال ذلك، الأسود الذي يريد أن يكون أكثر بياضاً بقدر اتقانه اللغة الفرنسية واحتقاره لغةَ أسلافه، والمرأةُ السوداء التي تريد أن تكون بيضاء أو أن تحظى ببعض البياض لمجرد أن يحبّها رجل أبيض، والرجل الأسود الذي يريد أن يصير أبيض لمجرد أن تحبّه امرأة بيضاء، والأسود المارتينيكي الذي لا يرى نفسه «زنجيّاً» لأن «الزنوج» يعيشون في إفريقيا فقط، والأسود المارتينيكي نفسه الذي يكتشف أنه «زنجيّ» مثل الإفريقيّ بمجرد أن تطأ قدمه أرضاً أوروبية، والرجل الأسود الذي يضاجع البيضاء انتقاما، والطبيب الأسود الذي أراد أن يكون طبيباً في الجيش الفرنسي لا لشيء سوى أن يكون تحت إمرته مرضى بيض، والأسود الذي يبحث عن هوية سوداء خالصة ونقية ردّ فعل على الأبيض الذي يعد السواد انحرافاً لا إنسانيّاً. تعامل فرانز فانون، الطبيب النفسيّ حديث العهد بالمهنة، مع هذه الحالات على أنها حالات مرضية وعقدُ نقص أو تفوّق تتطلب تدخّلاً علاجياً، واعتقد أن المرضى الذين سيتعرّفون على حقيقة مرضهم في هذا الكتاب «سيخطون خطوة إلى الأمام» على طريق العلاج.

أبدى فانون في الكتاب وعياً مبكراً بقوة تأثير الاستعمار في بنية العنصرية في المركز الاستعماريّ وفي المستعمرات، وذكر في الكتاب أنه لن يشفق مطلقاً «على الحكّام المستعمِرين القدامى» بل سيجعلهم هدفَ نقده مثل سود المستعمَرات المرضى. أراد عندما ناقش مسألة «الأسود واللغة» في الفصل الأول بكتابه توسيع دائرة استهدافه من السود إلى كل إنسان مستعمَر، إلى «كل شعب مستعمَر – أي كل شعب نشأت في صميمه عقدة الدونيّة، بسبب دفن الأصالة الثقافيّة المحليّة – يتموضع بإزاء لغة الأمّة المتحضّرة، أي الثقافة (ثقافة بلد المستعمر)». إلا أن فانون عاد ليقرّر أن الاستعمار ذو طبيعة عنصَرية، إلا أنها ليست عنصرية استثنائية ومتفرّدة بين مختلف أنواع العنصرية، وهو لا يرى فرقاً كبيراً بين معاداة السامية ومعاداة اليهود، وبين العنصرية الاستعمارية تجاه الشعوب المستعمَرة. فكلتاهما عنصريّتان تُجرّدان الإنسان من إنسانيته، وتتعاملان معه بدونية واحتقار، سواء كان أسودَ مستعمَراً أو أبيضَ يهوديّاً.

• مقتطف من دراسة نشرت في مجلة الفراتس

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

مئوية فرانز فانون في زمن "معذبو الارض"

علــــي حســين

في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٦١، قرّر عدد من الجنود نقل جثمان رجل توفي قبل ستة أيام بمرض سرطان الدم عبر الحدود الجزائرية التونسية، كانت تحرسهم مجموعة من قوات (جبهة التحرير الجزائرية)، حيث تم دفنه بهدوء.
كان فرانز فانون المولود في العشرين من تموز عام ١٩٢٥ في إحدى جزر المارتينيك التابعة لفرنسا قد توفي في إحدى مستشفيات واشنطن، فتقرر نقله إلى تونس، ومن بعدها إلى الجزائر التي حارب من أجل استقلالها.
فرانز فانون، هو الابن الخامس لأسرة كاريبية أفريقية من ثمانية أشخاص، مات اثنان منهم في الصغر، بما في ذلك أخته غابرييل التي كان فرانز قريباً جداً منها، والده فيليكس كازيمير فانون، من أصل أفريقي، والأمّ من أصول فرنسية، كان الأب موظفاً في الجمارك، بينما افتتحت الأمّ متجراً صغيراً للبضائع، وقد تمكنت العائلة من أن تُدخل أبناءها في المدرسة الفرنسية الخاصة، هناك سيعجب الطالب فرانز بالمعلم الشاعر (إيميه سيزير) الذي كان واحدا من أهمّ الاصوات الشعرية التي نددت بالعنصرية ضد السود.
في تلك السنوات يتفرغ فرانز فانون للقراءة، منتقلاً من أعمال لامارتين، إلى أعمال جان جوك روسو، تسحره رواية البؤساء لفكتور هيجو، فيكتب عنها دراسة قصيرة ينشرها في مجلة (المدرسة)، عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره يغادر جزر المارتينيك لينضم إلى القوات الفرنسية الحرة. في عام ١٩٤٤ أصيب بجروح طفيفة، فتمّ نقله إلى نورماندي، عام ١٩٤٥ يعود إلى جزر المارتينيك، بناء على طلب معلمه إيميه سيزير الذي قرر أن يخوض الانتخابات ضمن صفوف الحزب الشيوعي، يكمل فانون دراسته، بعدها يسافر إلى فرنسا لدراسة الطبّ النفسي، وفي نفس الوقت كان منشغلاً بدراسة الفلسفة، حيث قرأ كيركغارد وهيغل ولينين وهايدغر وسارتر، واهتم بشكل خاص بماركس الذي وجد في كتاباته إصراراً على أن الثورة ليس في وسعها أن تستمد أشعارها من الماضي، وإنما من المستقبل وحده. وسيعلق فانون على عبارة ماركس فيكتب مقالاً يقول فيه: "أن أولئك الرجال وحدهم من الزنوج والبيض الذين يرفضون أن يسمحوا لأنفسهم بالتقوقع داخل برج الماضي المتجسد، هم الذين لا يستعبدون"، وأيضاً كان يتابع حركات التحرر في العالم وهي تخوض معركتها من أجل الاستقلال، وأثارت اهتمامه قضية المستعمرات الفرنسية في أفريقيا، وكيف أن الاستعمار يخوض حرباً لا إنسانية غايتها طمس الهوية الحقيقية لهذه الشعوب، وكانت حصيلة كل هذه المواقف والقراءة والانتماء إلى اليسار الفرنسي هي كتابه الأول، (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، الذي لم يجد له في البداية ناشراً، فأكثر دور النشر اعتبرت مقالاته مجرد مقالات منفعلة، لكنّ الحظ يسعفه أخيراً بالعثور على ناشر معادٍ للاستعمار الفرنسي، ليصدر الكتاب عام ١٩٥٢ قبل هذا التاريخ كان فرانز فانون يكرس نشاطه لمبدأ الاتحاد بين الرجل الابيض والرجل الأسود، لكنه سيتخلى عن أحلامه في الاتحاد عندما يدرك أن الرجل الأبيض يعني بالاتحاد "أن تصبح مثلي"، وفي المقابل فأن الرجل الأبيض مقتنع بأن الرجل الأسود يستحيل أن يصبح مثله، كما يستحيل أن يصبح على قدر مماثل في المستوى، وبعد ما يقارب العشرين عاما سيكتب الروائي جيمس بالدوين: "أنّه ليس ثمة سبب يدعوك إلى أن تحاول أن تصبح كالرجل الأبيض، كما أنّه ليس ثمة أساس لافتراضهم الوقح بأن عليهم أوّلا أن يقبلوك".
كان كتاب (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، في الأصل أطروحة دكتوراه قدّمها فانون إلى جامعة ليون في فرنسا بعنوان (مقال عن فكّ ارتباط السود)، وفيها يرد فانون على العنصرية التي عانى منها أثناء دراسته للطب النفسي والطب في جامعة ليون، لكن الاطروحة ستُرفض من قبل الجامعة، فيقرر أن يطبعها في كتاب، رفضت معظم دور النشر طباعته إلى أن تبناه "فرانسيس جانسون" والذي كان يعمل أنذاك مديراً لتحرير مجلة الأزمنة الحديثة التي يصدرها جان بول سارتر، وفي الوقت نفسه رئيساً لجمعية تدعم استقلال الجزائر، وقد اختار جانسون عنوان (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء) لكتاب فانون، وكتب المقدمة له. والكتاب يسلط الضوء على حيرة فرانز فانون، فقد كان أمامه ثمة طريق، فإما أن يعمل بكل الوسائل على أن يصبح رجلاً أبيض ينتمي إلى المجتمع الفرنسي، أو التأكيد على تفوق القيم الزنجية والرفض المطلق للقيم البيضاء. وصف فانون في الكتاب المعاملة غير العادلة للسود في فرنسا وكيفية رفضهم البيض. كان لدى السود أيضاً شعور بالدونية عند مواجهة البيض. اعتقد فانون أنّه على الرغم من أنّهم يستطيعون التحدث بالفرنسية، إلّا أنّهم لا يستطيعون الاندماج الكامل في بيئتهم البيضاء.
بعد اندلاع الثورة الجزائرية في نوفمبر عام ١٩٥٤، التحق فانون بجبهة التحرير الوطنية، وقام برحلات مكثفة عبر الجزائر، خاصة في منطقة القبائل، لدراسة الحياة الثقافية والنفسية للجزائريين، وبسبب نشاطاته المؤيّدة لاستقلال الجزائر، قررت السلطات الفرنسية طرده من الجزائر ليستقر في تونس حيث ساهم بالكتابة بانتظام خلال سنوات ١٩٥٧-١٩٦٠ في جريدة (المجاهد)، الناطقة أنذاك باسم جبهة التحرير الوطني الجزائرية. في الرسالة التي وجهها فانون إلى السلطات الفرنسية بعد رحيله عن الجزائر يكتب عن الأوضاع في هذه البلاد: "لما يقرب من ثلاث سنوات وضعتُ نفسي وبشكل كامل في خدمة هذا البلد وسكانه. لم أوفر جهدا ولا اهتماماً. ولكن ما جدوى الحماس والتفاني إن كان الواقع اليومي مجرّد نسيج من الأكاذيب والخسة وازدراء الإنسان؟ وإن كان الطبّ النفسي هو الأداة الطبية التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به، فعليّ أن أوكد أن العربي غريب بشكل دائم في بلاده، يعيش في حالة من الاغتراب المطلق. لشهور عدة كان ضميري موقعاً لسجال لا يغتفر، انتهى بالعزم على ألّا أيأس من الإنسان، أي ألّا أفقد الأمل في نفسي".
كتب فرانز فانون عدداً من الكتب أشهرها (بشرة سوداء أقنعة بيضاء)، و (العام الخامس للثورة الجزائرية) و (معذبو الأرض)، كان أخرها كتاب (لأجل الثورة الأفريقية) الذي نُشر بعد وفاته.
كان فرانز فانون بعد أن علم بإصابته بمرض سرطان الدم قد طلب من صديقه فرانسيس جانسون أن يقنع جان بول سارتر في أن يكتب مقدمة لكتابه (معذبو الأرض)، وقد تم عقد لقاء بين سارتر وفانون في روما بعيداً عن أعين المخابرات الفرنسية. ويذكر فانون في ما بعد أن سارتر لم يتوقف عن قراءة الكتاب: "كان سارتر في تلك اللحظات عبارة عن طائرة انطلقت في الأجواء العالية. انشغل بكتابة المقدمة طوال الليل فيما كانت سيمون دي بوفوار تطبع ما يكتبه سارتر، واستمرت على هذه الحال إلى أن طلع الفجر". كتب سارتر ١٢٠ صفحة بأكملها دفعة واحدة. وتذكر سيمون دي بوفوار أن سارتر انجذب إلى فرانز فانون وأحب شخصيته، حتى أن جانسون يعلق أنّه لم ير سارتر مفتوناً بأحد مثلما فتن بفانون.
يكتب سارتر في تقديمه لكتاب فرانز فانون (معذبو الأرض)- ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي -: " افتحوا أيها الأوربيون هذا الكتاب وادخلوا فيه. فبعد بضع خطى تخطونها في الظلام، سترون أجانب مجتمعين حول نار، فاقتربوا منهم واصغوا: إنهم يناقشون المصير الذي يرصدونه لمواقعكم التجارية وللمرتزقة الذين يدافعون عنها، وقد يرونكم، ولكنهم سيستمرون في التحدث في ما بينهم، سوف تشعرون وأنتم على مسافة محترمة، لأنكم متخفون في الظلام، ترتعدون. وفي هذه الظلمات التي سينبثق منها فجر جديد ستكونون أنتم الأشباح"..
تبنى سارتر حجج فانون عن النضال، ومنها أن الثورة ضد المستعمر يجب أن تكون عنيفة، لا لأن العنف يجب أن يكون هدفاً، بل لأنه يساعد الشعوب المستعمرة على التخلص من الاضطهاد وصياغة هوية جديدة، كان فانون يرى في العنف عاملاً أساسياً في التغيير دون أن يمجده. وكان سارتر يرى في العنف فعلا نيتشويا من أفعال إعادة صياغة الذات، وقد قارنه بوحشية المستعمر.
مارس سارتر تأثيراً كبيراً على فرانز فانون منذ أن قرأ مقالته (أورفيوس الأسود) التي كتبها سارتر كمقدمة لكتاب الشاعر السنغالي الشهير (ليوبولد سنغور)، وفيها يؤكد أن الكاتب الاوربي لم يعد بقادر على تقييم العالم والسيطرة عليه: " ينظر هؤلاء الرجال السود إلينا، وترتد نظرتنا إلى أعيننا، فتضيء المشاعل السوداء بدورها العالم، وليست رؤوسنا البيضاء أكثر من فوانيس صينية تتأرجح في مهب الريح".. اكتشف فرانز فانون الوجوديّة أثناء دراسته الجامعية، وبتأثير من الكاتب الروائي الأمريكي (ريتشارد رايت) الذي كان يسلط الضوء في رواياته على المآسي التي يعاني منها السود بسبب التفرقة العنصرية، وكان فانون قد قرأ رواية رايت (ابن البلد) المنشورة عام ١٩٤٠ التي يجسد فيها حياة صبي أسود يشعر في لحظة أن المجتمع يتآمر ضده بهدف القضاء عليه نهائياً، وليس هناك من دافع للسلوك العدائي ضد الصبي سوى لونه الأسود.
كان فرانز فانون يحاول أن يقتفي أثر سارتر، لكنه بالمقابل أراد أن يتعالى على فكرته عن الروح الزنجية، وكان يرى أنّه يواجه عالما عبثياً لا يقيم وزناً لشهادته العلمية وأفكاره، بقدر ما يقيم وزناً للون بشرته، تأثر فانون بفكرة الحرية عند سارتر، ونجده في كتابه (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، وجودياً خالصاً يستكشف: "التجربة الحية لشعب أسود تلبّس بدور الآخر في عالم يهيمن عليه البيض".
تكمن أهمية تعاون سارتر وفانون في إدراكهما للعنف الهائل والألم الذي يلحقه الأقوياء اقتصادياً وسياسياً بالأقل منهم حظاً، وعلى وجه الخصوص، المستعمَرين.
جادل سارتر والبير كامو وسيمون دي بوفوار في كتاباتهم أن المواطنين الفرنسيين الذين اختاروا الاختباء في منازلهم وحماية عائلاتهم بدلاً من الانخراط في أعمال مقاومة عنيفة تجاه النازيين، لم يكونوا في الواقع أكثر من النازيين أنفسهم.
إن مقدمة سارتر لكتاب (معذبو الأرض)، لا يزال لها صدى قوي في عصر العولمة، وينبغي أن تدفع أصحاب الامتيازات في أمريكا وأوروبا إلى إجراء جرد دقيق لإنسانيتهم وأخلاقهم تجاه المستضعفين.
يكتب إيميه سيزير في رثاء تلميذه فرانز فانون: "إن كتابه (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء) هو الكتاب الحاسم بشأن العواقب الإنسانية للاستعمار والعنصرية، في حين أن كتابه (معذبو الارض) يعتبر مفتاح إزالة الاستعمار".
انطلق فانون في تصوره ككاتب للثورة من الإيمان بأن الثورة تحمل إلى النفوس الحرية، ويستطيع المجتمع من خلالها التحرر من الجمود والتخلف، وفي كتابه (معذبو الارض) يحلل سيرورة العنف في النظام الاستعماري، فيعتبر أن العنف يتطور بالأصل من عنف يضرب فيه الاستعمار جماعة أساسية، وهو نفس المعنى الذي كتبه سارتر في مقدمة كتاب البير ميمي (صورة المستعمر): "لقد كان الغزو بالعنف والاستغلال والضغط، من خلال الحضور الوحشي للجيش، لقد رفض المستعمر حقوق الإنسان من خلال التعذيب، الفقر، الحرمان، والأمية. إنها حالة ما دون إنسانية".
ستثير سيرة فانون ومواقفه المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد الذي يكتب: "إن جميع كتابات فرانز فانون حول الاستعمار تظهر درجة ما من التأثر بأفكار ماركس وسارتر".